تَنْبِيهٌ عَلَى بَعْضِ الْمُخَالَفَاتِ الْعَقْدِيَّةِ عِنْدَ الْبَلَاغِيِّينَ

obeikandl.com

obeikandl.com

تَنْبِيهٌ عَلَى بَعْضِ الْمُخَالَفَاتِ الْعَقْدِيَّةِ عِنْدَ الْبَلاغِيِّينَ

اعْلَمْ - أَخِي - عَلَّمَنِي اللهُ وَإِيَّاكَ - أَنَّ كُتُبَ الْمُعْتَزِلَةِ، وَالأَشَاعِرَةِ، وَالْمَاتُرِيدِيَّةِ قَدْ حَظِيَتْ بِانْتِشَارٍ بَيْنَ طَلَبَةِ الْعِلْمِ؛ لأَنَّهَا وَجَدَتْ مَنْ يَهْتَمُّ بِهَا تَحْقِيقًا وَطَبْعًا وَنَشْرًا، وَلِهَذَا صَارَتْ هِيَ الْمَصَادِرُ الأُولَىٰ لِدِرَاسَةِ الْبَلاغَةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤَسَّسَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِيَّةِ، وَيُمْكِنُكَ التَّحَقُّقُ مِنْ ذَلِكَ حِينَ تُتَابِعُ طَبَعَاتِ التَّلْخِيصِ وَالإِيضَاحِ لِلْخَطِيبِ، وَأَسْرَارَ الْبَلاغَةِ وَدَلائِلَ الإِعْجَازِ لِعَبْدِ الْقَاهِرِ، وَالْكَشَّافَ لِلزَّمَخْشَرِيِّ، وَلَمْ تَحْظَ الْكُتُبُ الَّتِي تَتَّفِقُ مَعَ مَنْهَجِ أَهْلِ السُّنَّةِ، مِثْلُ: تَأْوِيلُ مُشْكَلِ الْقُرْآنِ لابْنِ قُتَيْبَةَ، وَبَيَانُ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ لِلْخَطَّابِيِّ، أَوِ الْكُتُبُ الَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَىٰ مَنْهَجِ أَهْلِ السُّنَّةِ، مِثْلُ: بَدِيعُ الْقُرْآنِ، وَتَحْرِيرُ التَّحْبِيرِ لابْنِ أَبِي الإِصْبَعِ، وَالْمَثَلُ السَّائِرُ لابْنِ الأَثِيرِ، وَالْمِصْبَاحُ لِبَدْرِ الدِّينِ بْنِ مَالِكٍ، وَالتِّبْيَانُ لِلطِّيبِيِّ، لَمْ تَحْظَ هَذِهِ الْكُتُبُ بِمِثْلِ مَا حَظِيَتْ بِهِ كُتُبُ تِلْكَ الْفِرَقِ الْمُنْحَرِفَةِ(١)، إِنَّ ذَلِكَ لَيُذَكِّرُنِي بِقَوْلِ الشَّافِعِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ -: «اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ أَفْقَهُ مِنْ مَالِكٍ، لَكِنْ أَصْحَابُهُ لَمْ يَقُومُوا بِهِ»(٢).

وَاعْلَمْ - أَخِي - أَنَّهُ لا يَخْتَلِفُ اثْنَانِ فِي أَنَّ مُؤَلَّفَاتِ تِلْكَ الْفِرَقِ الْمُنْحَرِفَةِ إِنَّمَا هِيَ خِدْمَةٌ لِمَذْهَبِهِمْ فِي الْغَالِبِ.

وَسَوْفَ أَذْكُرُ بَعْضَ الْبَلاغِيِّينَ الَّذِينَ وَظَّفُوا الْبَلاغَةَ لِخِدْمَةِ مَذْهَبِهِمْ، وَتَقْرِيرِ عَقِيدَتِهِمْ(٣):

---

(١) انظُرْ «بَلاغة أهْلِ السُّنَّة» (ص١١) لمحمَّد الصَّامل.

(٢) «السِّيَر» (٨/١٥٦)، وأوْرَدَهُ الحافظُ ابْنُ حَجَرٍ في «الرَّسَائِلِ المُنيريَّة» (٢/٢٤٣).

(٣) انظر «بلاغَة أهْلِ السُّنَّة» لمُحَمَّد الصَّامل (ص٢٠)، ومَا بَعْدَهُ بتَصرُّفٍ يَسيرٍ.

الجاحظ:

هُوَ – مَعَ تَمَكُّنِهِ فِي هَذَا الشَّأْنِ – إِمَامٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْبِدَعِ(١)، بَلْ إِنَّهُ إِمَامُ الْفِرْقَةِ الْجَاحِظِيَّةِ(٢).

كَانَ حُلْوَ الْمَنْطِقِ، فِي أُسْلُوبِهِ رَشَاقَةٌ كَالشَّهْدِ، يَمْتَازُ بِحُسْنِ السَّبْكِ، وَبَرَاعَةِ التَّصْوِيرِ، فَقَدِ اسْتَطَاعَ بِسِحْرِ بَيَانِهِ تَطْوِيعَ النُّصُوصِ لِخِدْمَةِ مُعْتَقَدِهِ الاعْتِزَالِيِّ، وَمَعَ انْحِرَافِهِ فِي الْعَقِيدَةِ فَقَدْ كَانَ مَجَّانًا(٣)، تَارِكًا لِلصَّلاةِ(٤)، فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ نَفْثَةِ سِحْرِهِ، وَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ؛ فَرُبَّمَا دَسَّ شُبُهَاتَهُ فِي لَحْظَةِ السُّكْرِ؛ فَتَقْضِي لَهُ بِنَحْوِ مَا تَسْمَعُ.

عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُقَفَّعِ:

وَاحْذَرْ – أَيْضًا – ابْنَ الْمُقَفَّعِ؛ فَإِنَّهُ – مَعَ فَرْطِ ذَكَائِهِ، وَقُوَّةِ بَيَانِهِ – مُتَّهَمٌ بِالزَّنْدَقَةِ(٥).

نَعَتَهُ الذَّهَبِيُّ، فَقَالَ: «عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُقَفَّعِ أَحَدُ الْبُلَغَاءِ، وَرَأْسُ الْكُتَّابِ وَأُولِي

---

(١) قَالَ الذَّهَبِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ – فِي «المِيزَانِ» (٣/٢٤٧) عَنِ الجَاحِظِ: «كَانَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ. وقَالَ عَنْهُ ثَعْلَبٌ: لَيْسَ بِثِقَةٍ وَلا مَأْمُونٍ».
وَقَالَ – أَيْضًا –: «كَانَ كَذَّابًا عَلَى اللهِ، وعَلَى رَسُولِهِ، وَعَلَى النَّاسِ».

(٢) الْفِرْقَةُ الجَاحِظِيَّةُ: فِرْقَةٌ تُنْسَبُ لِلْجَاحِظِ. قَالَ الإِمَامُ عَبْدُ الْقَاهِرِ الْبَغْدَادِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ – فِي سِيَاقِ كَلامِهِ عَلَى الْفِرْقَةِ الجَاحِظِيَّةِ – كَمَا فِي كِتَابِهِ «الْفَرْقُ بَيْنَ الْفِرَقِ» (ص١٦٠) –: «وَلَوْ عَرَفُوا جَهَالَتَهُ – أَيْ: الجَاحِظَ – فِي ضَلالَتِهِ، لاسْتَغْفَرُوا اللهَ – تَعَالَى – مِنْ تَسْمِيَتِهِ إِنْسَانًا، فَضْلاً عَنْ أَنْ يُنْسَبَ إِلَيْهِ إِحْسَانًا».

(٣) مَجَّانًا: أَيْ كَثِيرَ المُجُونِ – كَمَا وَصَفَهُ بِذَلِكَ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ حَزْمٍ فِي «لِسَانِ المِيزَانِ» (٤/٣٥٧) –. وَالمُجُونُ: أَلاَّ يُبَالِيَ الإِنْسَانُ مَا صَنَعَ، وَمَا قِيلَ لَهُ لِصَلابَةِ وَجْهِهِ وَقِلَّةِ اسْتِحْيَائِهِ، وَبَابُهُ دَخَلَ.

(٤) انْظُرْ «تَارِيخ بَغْدَاد» (٢٢/٢١٧).

(٥) «السِّيَر» لِلذَّهَبِيِّ (٦/٢٠٨).

الإنْشَاءِ مِنْ نُظَرَاءِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الْكَاتِبِ، وَكَانَ مِنْ مَجُوسِ فَارِسَ، فَأَسْلَمَ عَلَىٰ يَدِ الأَمِيرِ عِيسَىٰ عَمِّ السَّفَّاحِ، وَكَتَبَ لَهُ، وَاخْتَصَّ بِهِ».

قَالَ الْهَيْثَمُ بْنُ عَدِيٍّ: «قَالَ لَهُ: أُرِيدُ أَنْ أُسْلِمَ عَلَىٰ يَدَيْكَ بِمَحْضَرِ الأَعْيَانِ، ثُمَّ قَعَدَ يَأْكُلُ وَيُزَمْزِمُ[١] بِالْمَجُوسِيَّةِ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟!.

قَالَ: أَكْرَهُ أَنْ أَبِيتَ عَلَىٰ غَيْرِ دِينٍ»[٢].

وَرُوِيَ عَنِ الْمَهْدِيِّ قَالَ: «مَا وَجَدْتُ كِتَابَ زَنْدَقَةٍ إِلاَّ وَأَصْلُهُ ابْنُ الْمُقَفَّعِ»[٣].

أَبُو بَكْرٍ الْبَاقِلاَنِيُّ:

وَاحْذَرِ الْبَاقِلانِيِّ صَاحِبَ كِتَابِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ وَالانْتِصارِ لِلْقُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ أَشْعَرِيٌّ جَلْدٌ[٤]، بَلْ إِنَّهُ الْمُؤَسِّسُ الثَّانِي لِلْمَذْهَبِ الأَشْعَرِيِّ[٥].

نَعَتَهُ الذَّهَبِيُّ فَقَالَ: «صَنَّفَ فِي الرَّدِّ عَلَىٰ الرَّافِضَةِ، وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَالْخَوَارِجِ، وَالْجَهْمِيَّةِ، وَالْكَرَّامِيَّةِ، وَانْتَصَرَ لِطَرِيقَةِ أَبِي الْحَسَنِ الأَشْعَرِيِّ، وَقَدْ يُخَالِفُهُ فِي مَضَائِقَ، فَإِنَّهُ مِنْ نُظَرَائِهِ»[٦].

---

(١) الزَّمْزَمَةُ: كَلامٌ يَقُولُهُ المَجُوسُ عِنْدَ أَكْلِهِمْ بِصَوْتٍ خَفِيٍّ، لا يَسْتَعْمِلونَ فِيهِ اللِّسَانَ وَلا الشَّفَةَ، لَكِنَّهُ صَوْتٌ يُدِيرُونَهُ فِي خَيَاشِيمِهِمْ وَحُلُوقِهِمْ، فَيَفْهَمُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ.

(٢) «السِّيَرُ» لِلذَّهَبِيِّ (٦/ ٢٠٨).

(٣) المَرْجِعُ السَّابِقُ (٦/ ٢٠٨).

(٤) جَلْد - بِالْفَتْحِ -: أَيْ شَدِيدٌ صُلْبٌ.

(٥) انْظُرْ «مَوْقِفُ ابْنِ تَيْمِيَّةَ مِنَ الأَشَاعِرَةِ» لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ المَحْمود (ص٥٤٩).

(٦) «سِيَرُ أَعْلامِ النُّبَلاءِ» (١٧/ ١٩٠).

الشَّريفُ الرَّضيُّ:

هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الشَّرِيفُ الرَّضِيُّ، صَاحِبُ كِتَابَ تَلْخِيصِ الْبَيَانِ فِي مَجَازَاتِ الْقُرْآنِ، وَكِتَابَ الْمَجَازَاتِ النَّبَوِيَّةِ.

وَصَفَهُ الذَّهَبِيُّ بِأَنَّهُ: نَقِيبُ الطَّالبِيِّينَ (١).

وَقَدِ اسْتَخْدَمَ الْبَلاغَةَ لِتَأْوِيلِ الصِّفَاتِ.

الْقَاضِي عَبْدُ الْجَبَّارِ:

هُوَ أَبُو الْحَسَنِ عَبْدُ الْجَبَّارِ الأَسدآبَاذِيُّ، صَاحِبُ كِتَابَ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ، وَظَّفَهُ لِخِدْمَةِ مُعْتَقَدِهِ الاعْتِزَالِيِّ، بَلْ إِنَّهُ مِنْ أَبْرَعِ الْمُعْتَزِلَةِ تَأْوِيلاً.

عَبْدُ الْقَاهِرِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجُرْجَانِيُّ:

هُوَ إِمَامُ الْبَلاغَةِ، وَالْمُقَدَّمُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِهَا، صَاحِبُ الْكُتُبِ السَّائِرَةِ فِي الْبَلاغَةِ: كَأَسْرَارِ الْبَلاغَةِ، وَدَلائِلِ الإِعْجَازِ، وَالرِّسَالَةِ الشَّافِيَةِ. قَالَ عَنْهُ الذَّهَبِيُّ: «شَيْخُ الْعَرَبِيَّةِ، كَانَ شَافِعِيًّا، عَالِمًا أَشْعَرِيًّا، ذَا نُسُكٍ وَدِينٍ»(٢).

وَقَدْ وَظَّفَ مُؤَلَّفَاتِهِ لِخِدْمَةِ مُعْتَقَدِهِ الأَشْعَرِيِّ، وَالرَّدِّ عَلَىٰ خُصُومِهِمْ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ، وَوَقَعَ فِي تَأْوِيلِ بَعْضِ الصِّفَاتِ.

فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ:

الرَّازِيُّ مِنْ كِبَارِ الأَشَاعِرَةِ، وَكِتَابُهُ التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ عَلَىٰ طَرِيقَتِهِمْ، وَكَذَلِكَ كِتَابُهُ الإِيجَازُ فِي دِرَايَةِ الإِعْجَازِ.

---

(١) «سِيَرُ أَعْلامِ النُّبَلاءِ» (١٧/ ٢٣٥).

(٢) «سِيَرُ أَعْلامِ النُّبَلاءِ» (١٨/ ٤٣٣).

نَعَتَهُ الذَّهَبِيُّ فَقَالَ: «بَدَتْ فِي تَوَالِيفِهِ بَلَايَا وَعَظَائِمُ، وَسِحْرٌ وَانْحِرَافَاتٌ عَنِ السُّنَّةِ، وَتُوُفِّيَ عَلَىٰ طَرِيقَةٍ حَمِيدَةٍ، وَاللهُ يَتَوَلَّىٰ السَّرَائِرَ»(١).

ثُمَّ نَقَلَ عَنْهُ قَوْلَهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ: «تَأَمَّلْتُ الطُّرُقَ الْكَلَامِيَّةَ، وَالْمَنَاهِجَ الْفَلْسَفِيَّةَ، فَمَا رَأَيْتُهَا تَشْفِي عَلِيلاً، وَلَا تَرْوِي غَلِيلاً، وَرَأَيْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ، أَقْرَأُ فِي الإِثْبَاتِ: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ [طه: ٥]، و﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾ [فَاطِرُ: ١٠]، وَأَقْرَأُ فِي النَّفْيِ: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشُّورَىٰ: ١١].

وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي، عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي»(٢).

السَّكَاكِيُّ:

هُوَ أَبُو يَعْقُوبَ يُوسُفُ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّكَاكِيُّ، صَاحِبُ كِتَابِ «مِفْتَاحُ الْعُلُومِ»، الَّذِي أَصْبَحَ قُطْبَ الرَّحَىٰ لِلْبَلَاغَةِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ، وَبِخَاصَّةٍ أَصْحَابَ الاتِّجَاهِ الْعَقْلِيِّ(٣)، وَهُوَ مُعْتَزِلِيٌّ جَلْدٌ.

نَعَتَهُ يَاقُوتُ الْحَمَوِيُّ بِقَوْلِهِ: «مُتَكَلِّمٌ فَقِيهٌ، مُتَفَنِّنٌ فِي عُلُومٍ شَتَّىٰ»(٤).

الزَّمَخْشَرِيُّ:

الزَّمَخْشَرِيُّ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الزَّمَخْشَرِيُّ؟!، الزَّمَخْشَرِيُّ إِمَامٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْبِدَعِ(٥)، إِمَامٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْبَلَاغَةِ.

لَهُ كِتَابُ الْكَشَّافِ، يُعَدُّ مَرْجِعًا عِنْدَ جُمْهُورِ الْبَلَاغِيِّينَ، كَشَفَ فِيهِ عَنْ أَسْرَارِ الإِعْجَازِ الْبَيَانِيهِ وَالْغَوْصِ فِي الْمَعَانِي.

---

(١) «سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ» (٢١/ ٥٠٠).

(٢) «سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ» (٢١/ ٥٠١).

(٣) انْظُرْ «بَلَاغَةَ أَهْلِ السُّنَّةِ» (ص٥٥).

(٤) «مُعْجَمُ الأُدَبَاءِ» (٢٠/ ٥٨ - ٥٩).

(٥) وصفَهُ الذَّهَبِيُّ فِي «السِّيَرِ» (٢/ ١٥١): «أَنَّهُ كَبِيرُ الْمُعْتَزِلَةِ».

لَكنَّهُ وَظَّفَهُ لخدْمَة مُعْتَقَده، فَهُوَ كَمَا قيلَ عَنْهُ: «يَنْظُرُ إِلَىٰ الْقُرْآن نَظْرَةً عَامَّةً، فَيَجْعَلُ الآيَ الْمُنَاصِرَةَ ظَوَاهِرَهُ لِلْمَذْهَبِ الاعْتِزَالِيِّ مُحْكَمَةً، وَتِلْكَ الَّتِي تُخَالِفُهُ مُتَشَابِهَةً، ثُمَّ يَرُدُّ الْمُتَشَابِهَ إِلَىٰ الْمُحْكَمِ؛ لِيُخْضِعَ تَفْسِيرَهَا لِلرَّأْيِ الاعْتِزَالِيِّ»(١).

وَقَدْ كَانَ ذَكِيًّا فِي الدَّسِّ، جَعَلَتْ أَحَدَ كِبَارِ الأَئِمَّةِ يَسْتَخْرِجُ بَعْضَ ضَلالَتِهِ بِالْمَنَاقِيشِ(٢)، فَقَدْ كَانَ يَسْرِقُ الإِنْسَانَ حَالَ السَّكْرِ(٣) بِمَا أُوتِيَ مِنْ سُطُوعِ بَيَانٍ، وبَرَاعَةٍ فِي الْكَلامِ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللهُ - أَثْنَاءَ الْكَلامِ عَنْ تَفَاسِيرِ الْمُعْتَزِلَةِ مَا نَصُّهُ: «وَمِنْ هَؤُلاءِ مَنْ يَكُونُ حَسَنَ الْعِبَارَةِ، يَدُسُّ الْبِدَعَ فِي كَلامِهِ، وأَكْثَرُ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ: كَصَاحِبِ «الْكَشَّافِ» وَنَحْوِهِ، حَتَّىٰ إِنَّهُ يُرَوِّجُ عَلَىٰ خَلْقٍ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنْ تَفَاسِيرِهِمُ الْبَاطِلَةِ»(٤).

وَقَالَ عَنْهُ الذَّهَبِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ -: «صَالِحٌ، لَكِنَّهُ دَاعِيَةٌ إِلَىٰ الاعْتِزَالِ - أَجَارَنَا اللهُ - فَكُنْ حَذِراً مِنْ كَشَّافِهِ»(٥).

وَأَلَّفَ الْعَلامَةُ السُّبْكِيُّ كِتَابًا سَمَّاهُ: «الانْكِفَافُ عَنْ قِرَاءَةِ الْكَشَّافِ»، ذَكَرَ

---

(١) «مَنْهَجُ الزَّمَخْشَرِيِّ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَبَيَانِ إِعْجَازِهِ» (ص١٠٦).

(٢) قَالَ الإِمَامُ الْبُلْقِينِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - كَمَا فِي «الإِتْقَانِ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ» (٢/ ١٩٠): «اسْتَخْرَجْتُ مِنَ الْكَشَّافِ اعْتِزَالاً بِالْمَنَاقِيشِ». وَالْمَنَاقِيشُ: جَمْعُ مِنْقَاشٍ - بِالْكَسْرِ -، آلَةٌ يُنْقَشُ (أَيْ: يُنْتَفُ) بِهَا الشَّوْكُ مِنَ الْجِسْمِ.

(٣) قَالَ الإِمَامُ السُّيُوطِيُّ - كَمَا فِي «التَّحْبِيرِ» (٣٣٠ - ٣٣١) -: «وَمِمَّنْ لا يُقْبَلُ تَفْسِيرُهُ الْمُبْتَدِعُ، خُصُوصًا الزَّمَخْشَرِيُّ فِي «كَشَّافِهِ»؛ فَقَدْ أَكْثَرَ فِيهِ مِنْ إِخْرَاجِ الآيَاتِ عَنْ وَجْهِهَا إِلَىٰ مُعْتَقَدِهِ الْفَاسِدِ، بِحَيْثُ يَسْرِقُ الإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُ، وَأَسَاءَ فِيهِ الأَدَبَ عَلَىٰ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ - ﷺ - فِي مَوَاضِعَ عَدِيدَةٍ، فَضْلاً عَنِ الصَّحَابَةِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ».

(٤) «مُقَدِّمَةُ أُصُولِ التَّفْسِيرِ» لِشَيْخِ الإِسْلامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ (ص٣٨).

(٥) «لِسَانُ الْمِيزَانِ» (٤/ ٧٨).

فيه: أَنَّهُ عَقَدَ التَّوْبَةَ مِنْ إِقْرَائِه، وَتَابَ إِلَىٰ اللهِ، فَلا يَقْرَؤُهُ، وَلا يَنْظُرُ فِيهِ أَبَدًا؛ لِمَا حَوَاهُ مِنَ الإِسَاءَةِ الْمَذْكُورَةِ.

وَقَالَ: «وَقَدِ اسْتَشَارَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ أَنْ يَشْتَرِيَ مِنْهُ نُسْخَةً، وَيَحْمِلَهَا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، فَأَشَرْتُ عَلَيْهِ بِأَلاَّ يَفْعَلَ حَيَاءً مِنَ النَّبِيِّ - ﷺ - أَنْ يُنْقَلَ إِلَىٰ بَلَدٍ هُوَ فِيهِ كِتَابٌ فِيهِ مَا يَتَعَلَّقُ بِجَنَابِهِ - ﷺ -، عَلَىٰ أَنَّهُ آيَةٌ فِي أَنْوَاعِ الْبَلاغَةِ وَالإِعْجَازِ[١]، لَوْلا مَا شَانَهُ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ»[٢].

وَقَالَ ابْنُ خَلْدُون - رَحِمَهُ اللهُ - مُبَيِّنًا مَزِيَّةَ تَفْسِيرِهِ: «... فَانْفَرَدَ بِهَذَا الْفَضْلِ عَلَىٰ جَمِيعِ التَّفَاسِيرِ، لَوْلا أَنَّهُ يُؤَيِّدُ عَقَائِدَ أَهْلِ الْبِدَعِ عِنْدَ اقْتِبَاسِهَا مِنَ الْقُرْآنِ بِوُجُوهٍ بَلاغِيَّةٍ»[٣].

أَيْ أَخِي، هَذَا قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ، وَقَطْرَةٌ مِنْ مَطْرَةٍ مِمَّا عِنْدَ الزَّمَخْشَرِيِّ مِنَ الطَّوَامِّ، فَإِذَا كَانَ أَحَدُ كِبَارِ أَئِمَّةِ الْبَلاغَةِ يَتَتَرَّسُ بِعِلْمِهِ، وَيَسْتَخْرِجُ مِنَ الْكَشَّافِ اعْتِزَالاً بِالْمَنَاقِيشِ، فَمَا أَحْوَجَنَا نَحْنُ إِلَىٰ الْفِرَارِ مِنْهُ؛ فَإِنَّ الْقُلُوبَ ضَعِيفَةٌ، وَالشُّبَهَ خَطَّافَةٌ!!.

الْمُتَنَبِّي:

الْمُتَنَبِّي شَاعِرَ الدُّنْيَا، وَشَاغِلَ النَّاسِ، أَبْيَاتُهُ كَالنُّجُومِ ضِيَاءً، وَالْحَدَائِقِ بَهْجَةً.

---

(١) انْظُرْ - أَخِي - كَيْفَ اتَّفَقَتْ عِبَارَةُ الْعُلَمَاءِ عَلَىٰ الإِشَادَةِ بِبَيَانِ الزَّمَخْشَرِيِّ، لَكِنْ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ التَّحْذِيرِ مِنْهُ وَمِنْ كَشَّافِهِ.

وَقَدْ قِيلَ:

فِي زُخْرُفِ الْقَوْلِ تَزْيِينٌ لِبَاطِلِهِ ... وَالْحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرِ

تَقُولُ: هَذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ ... وَإِنْ تَعِبْ قُلْتَ: ذَا تَفِيءُ الزَّنَابِيرِ

مَدْحًا وَذَمًّا وَمَا جَاوَزْتَ وَصْفَهُمَا ... سِحْرُ الْبَيَانِ يُرِي الظَّلْمَاءَ كَالنُّورِ

(٢) «التَّحْبِيرُ» (٣٣٠/ ٣٣١).

(٣) «مُقَدِّمَةُ ابْنُ خَلْدُون» (ص٥٥٣).

وَهُوَ كَغَيْرِهِ مِنْ أَئِمَّةِ الْبلاغَةِ وَالْبَيَانِ، الَّذِينَ يَتَمَيَّزُونَ عَنْ غَيْرِهِمْ بِرِقَّةِ الدِّينِ، وَضَعْفِ الْيقِينِ.

فَهَا هُوَ يَقُولُ فِي رَائِعَتِهِ:

يَتَرَشَّفْنَ[١] مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ هُنَّ فِيهِ أَحْلَىٰ مِنَ التَّوْحِيدِ[٢]

قَالَ الْعَلاَّمَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ –: «فَتَأَمَّلْ حَالَ أَكْثَرِ عُشَّاقِ الصُّوَرِ، تَجِدْهَا مُطَابِقَةً لِذَلِكَ، ثُمَّ ضَعْ حَالَهُمْ فِي كَفَّةٍ، وَتَوْحِيدَهُمْ وَإِيمَانَهُمْ فِي كَفَّةٍ، ثُمَّ زِنْ وَزْنًا يَرْضَىٰ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَيُطَابِقُ الْعَدْلَ، وَرُبَّمَا صَرَّحَ الْعَاشِقُ مِنْهُمْ بِأَنَّ وَصْلَ مَعْشُوقِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ رَبِّهِ، كَمَا قَالَ الْعَاشِقُ الْخَبِيثُ:

يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ هُنَّ فِيهِ أَحْلَىٰ مِنَ التَّوْحِيدِ»[٣]

السُّبْكِيُّ:

هُوَ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الْكَافِي بَهَاءُ الدِّينِ السُّبْكِيُّ، مِنْ عَائِلَةِ عِلْمٍ أَشْعَرِيَّةٍ، أَسْهَمَتْ فِي كُلِّ فَنٍّ، لَهُ فِي الْبَلاغَةِ التَّصَانِيفُ الْكَثِيرَةُ:

كَالإِغْرِيضِ فِي الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ وَالتَّعْرِيضِ، وَالاقْتِنَاصِ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الْحَصْرِ وَالْقَصْرِ، وَالاخْتِصَاصِ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ، وَأَحْكَامِ كُلِّ مَا تَدُورُ عَلَيْهِ، وَوَشْيِ الْحُلَلِ فِي تَأْكِيدِ النَّفْيِ بِلا، وَسَبَبِ الانْكِفَافِ عَنْ إِقْرَاءِ الْكَشَّافِ.

وَهَذَا الأَخِيرُ أَمْلاهُ حِينَ وَقَفَ عَلَىٰ طَوَامِّ الزَّمَخْشَرِيِّ فِي كَشَّافِهِ، وَمُخَالَفَتِهِ الْعَقَدِيَّةِ، وَنَيْلِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ – ﷺ –.

---

(١) يَتَرَشَّفْنَ: يُقَبِّلْنَ وَيَمْصَصْنَ.

(٢) دِيوَانُهُ (١/ ٦٢).

(٣) «الجَوابُ الْكافِي» (ص٣٥٤).

وَمِمَّا يُحْمَدُ لَهُ: رُدُودُهُ عَلَىٰ الْمُعْتَزِلَةِ فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ، لَكِنَّهُ لَمْ يَسْلَمْ مِنْ غُبَارِهِمْ، فَهَا هُوَ يَتَّفِقُ مَعَ الزَّمَخْشَرِيِّ فِي اللُّجُوءِ لِبَابِ التَّخْيِيلِ حِينَ يَكُونُ النَّصُّ مُخَالِفًا لِمَا يَرَاهُ الْمُعْتَزِلَةُ وَالأَشَاعِرَةُ.

فَهَا هُوَ يَشْرَحُ قَوْلَهُ - تَعَالَىٰ -: ﴿ **وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [الزُّمَرُ: ٦٧].

نَقَلَ عَنِ الزَّمَخْشَرِيِّ: «وَفِيهِ تَفْوِيضٌ مُطْلَقٌ لِمَعْنَىٰ الْقَبْضَةِ وَالْيَمِينِ؛ لأَنَّهُ يَقُولُ: مِنْ غَيْرِ ذِهَابٍ بِالْقَبْضَةِ وَلا بِالْيَمِينِ إِلَىٰ جِهَةٍ حَقِيقَةً أَوْ مَجَازٍ»(١).

ثُمَّ أَثْنَىٰ عَلَىٰ بَابِ التَّخْيِيلِ بِقَوْلِهِ: «وَلا نَرَىٰ بَابًا فِي عِلْمِ الْبَيَانِ أَدَقَّ وَأَلْطَفَ مِنْ هَذَا الْبَابِ، وَلا أَنْفَعَ وَلا أَعْوَنَ عَلَىٰ تَعَاطِي تَأْوِيلِ الْمُشْتَبِهَاتِ»(٢).

فَانْظُرْ - أَخِي - كَيْفَ رَجَعَ هَذَا الإِمَامُ مِنَ الْمِيدَانِ وَبِهِ كَلَمٌ!(٣).

فَكُنْ حَذِرًا؛ فَأَنْتَ تَرَىٰ أَنَّ هَذَا الْبَحْرَ خَاضَ فِيهِ عُلَمَاءُ أَعْلامٌ، وَمَنْ مِنْهُمْ قَدْ سَلِمَ، وَمَنْ مِنْهُمْ لَمْ يَرْجِعْ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِالْمَلامِ!.

التَّفْتَازَانِيُّ:

هُوَ سَعْدُ الدِّينِ مَسْعُودُ بْنُ عُمَرَ التَّفْتَازَانِيُّ، صَاحِبُ شَرْحِ التَّلْخِيصِ، وَغَيْرِهِ مِنْ فُنُونِ الْبَلاغَةِ. وَيُحْمَدُ لَهُ رَدُّهُ عَلَىٰ الْمُعْتَزِلَةِ، لَكِنَّهُ وَقَعَ فِي التَّأْوِيلِ.

وَقَدْ وَصَفَهُ أَحَدُهُمْ بِأَنَّهُ: «مَاتُرِيدِيٌّ صُلْبٌ»(٤).

---

(١) «عَرُوسُ الأَفْرَاحِ شَرْحِ التَّلْخِيصِ» (٤/٣٥).

(٢) المَرْجِعُ السَّابِقُ (٤/٣٦).

(٣) الْكَلْمُ - بِالْفَتْحِ -: الجَرْحُ، وَالجَمْعُ كُلُوم، وَكِلام.

(٤) «المَاتُرِيدِيَّة وَمَوْقِفُهُمْ مِنْ تَوْحِيدِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» للشَّمْسِ الأَفْغَانِيِّ (١/٢٩٣).

السُّيُوطِيُّ:

هُوَ جَلالُ الدِّينِ السُّيُوطِيُّ، صَاحِبُ عُقُودِ الْجُمَانِ فِي الْبَلاغَةِ، وَفَتْحِ الْجَلِيلِ لِلْعَبْدِ الذَّلِيلِ، وَمَجَازِ الْفُرْسَانِ إِلَىٰ مَجَازِ الْقُرْآنِ، وَجَنْيِ الْجِنَاسِ، وَتَلْخِيصِ الْمِفْتَاحِ، وَأَسْرَارِ الْقُرْآنِ الْبَلاغِيَّةِ، وَهُوَ صَاحِبُ الإِتْقَانِ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ، وَمُعْتَرَكِ الأَقْرَانِ.

وَالسُّيُوطِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - لَمْ يَسْلَمْ مِنْ غُبَارِ عُلَمَاءِ الْبَيَانِ، فَقَدْ وَقَعَ فِي التَّأْوِيلِ كَمَا فِي كِتَابِهِ عُقُودُ الْجمان، فَتَأَوَّلَ صِفَةَ الْمَجِيءِ فِي بَابِ الْحَذْفِ، وَجَعَلَ الْمُرَادَ مَجِيءَ الأَمْرِ أَوِ الْعَذَابِ(١).

تَأْوِيلُهُ لِلْقَبْضَةِ وَالْيَمِينِ فِي بَابِ التَّخْيِيلِ(٢).

تَأْوِيلُهُ لِصِفَتَيِ النَّفْسِ وَالْمَكْرِ فِي بَابِ الْمُشَاكَلَةِ، إِذْ يَقُولُ: «فَإِنَّ إِطْلاقَ النَّفْسِ وَالْمَكْرِ فِي جَانِبِ الْبَارِي - تَعَالَىٰ - إِنَّمَا هُوَ مُشَاكَلَةٌ»(٣).

تَأْوِيلُهُ لِصِفَتَيِ الاسْتِوَاءِ وَالْيَدِ فِي بَابِ التَّوْرِيَةِ(٤).

ابْنُ كَمَال بَاشَا:

لَهُ مُشَارَكَةٌ فِي عُلُومِ الْبَلاغَةِ، وَهُوَ صَاحِبُ كِتَابِ الْمَزَايَا وَالْخَوَاصِّ فِي الأُسْلُوبِ الْبَلاغِيِّ، وَرِسَالَةٌ فِي الْفَصَاحَةِ، وَرِسَالَةٌ فِي صِيَاغَةِ الْكَلامِ، وَرِسَالَةٌ فِي تَقْسِيمِ الْمَجَازِ، وَرِسَالَةٌ فِي بَيَانِ الأُسْلُوبِ، وَهُوَ مَاتُرِيدِيٌّ كَمَا ذَكَرَ عَنْهُ الشَّمْسُ الأَفْغَانِيُّ(٥).

---

(١) «عُقُودُ الجمان» (ص٧١).

(٢) المَرْجِعُ السَّابِقُ (ص١٠٠).

(٣) المَرْجِعُ السَّابِقُ (ص١١٠).

(٤) المَرْجِعُ السَّابِقُ (ص١١٣).

(٥) انظُرْ «المَاتُرِيدِيَّة وَمَوْقِفُهُمْ مِنْ تَوْحِيدِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» (١/ ٣١٥).

وَقَدْ وَقَعَ فِي التَّأْوِيلِ كَحَالِ غَيْرِهِ.

يُوسُفُ بْنُ مَرْعِي الْحَنْبَلِيُّ:

هُوَ صَاحِبُ الْقَوْلِ الْبَدِيعِ فِي عِلْمِ الْبَدِيعِ.

خَاضَ فِي التَّأْوِيلِ كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُ، فَهُوَ يَجْعَلُ قَوْلَهُ - تَعَالَىٰ -: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ [طه: ٥]، مِثَالاً لِلتَّوْرِيَةِ!، وَهَذَا تَأْوِيلٌ لِصِفَةِ الاسْتِوَاءِ.

obeikandl.com

مَفَاسِدُ الْمَجَازِ

أَيْ أَخِي، هَذَا قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ، وَقَطْرَةٌ مِنْ مَطْرَةٍ، فَلَوْ وَقَفْتَ عَلَىٰ الْخِلافِ الدَّائِرِ بَيْنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَالأَشَاعِرَةِ، لَطَالَ تَعَجُّبُكَ، وَتَتَوَالَىٰ الرُّدُودُ عَلَىٰ تَعَاقُبِ الْقُرُونِ، وَعَلَىٰ هَذَا سَارَ الْمَاتُرِيدِيَّةُ، وَالشِّيعَةُ، وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْفِرَقِ الْمُنْحَرِفَةِ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ أَنَّ مَبَاحِثَهُمُ الْبَلاغِيَّةَ إِنَّمَا هِيَ خِدْمَةٌ لِمَذْهَبِهِمْ، وَالتُّكَأَةُ الَّتِي اتَّكَئُوا عَلَيْهَا هِيَ الْمَجَازُ[١].

---

(١) الحَدِيثُ عَنِ المَجَازِ ذُو شُجُونٍ، وَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ عُلَمَاءُ أَعْلامٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، ذَكَرَ الشَّيْخُ مُصْطَفَىٰ بْنُ عِيدٍ الصَّيَاحِفَةُ خُلاصَةَ ذَلِكَ فِي بَحْثٍ لَهُ، نُشِرَ فِي مَجَلَّةِ الْبُحُوثِ الإِسْلامِيَّةِ (عَدَد ٤٧) بِعُنْوَانِ «مَفَاسِدُ المَجَازِ»، هَذَا نَصُّهُ: «المَجَازُ صَنْعَةٌ اعْتِزَالِيَّةٌ كَلامِيَّةٌ مَحْضَةٌ، تَقُومُ عَلَىٰ أَسَاسِ صَرْفِ الأَلْفَاظِ الْعَرَبِيَّةِ عَنْ مَنْطُوقِهَا، وَتَحْوِيلِ هَذَا المَنْطُوقِ عَنْ دَلالاتِهِ المَأْلُوفَةِ المَعْهُودَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ، وَلَدَىٰ رِجَالاتِ الصَّدْرِ الأَوَّلِ فِي الإِسْلامِ، هَذَا بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ كَوْنِهِ التُّكَأَةَ الَّتِي اعْتَمَدَ عَلَيْهَا لِتَعْطِيلِ صِفَاتِ الخَالِقِ، وَإِنْكَارِ حَقَائِقِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ - سُبْحَانَهُ -، وَلَيِّ عُنُقِ مَفْهُومِ الإِيمَانِ عَنْ دَلالَتِهِ وَمَعْنَاهُ، وَتَشْوِيشِ دَلالاتِ آيَاتِ الْكِتَابِ الحَكِيمِ فِي أَذْهَانِ عَامَّةِ المُسْلِمِينَ. وَسَوْفَ نُحَاوِلُ هُنَا الْوُقُوفَ عَلَىٰ أَهَمِّ هَذِهِ المَفَاسِدِ النَّاجِمَةِ عَنِ الْقَوْلِ بِهِ، وَإِقْرَارِ وُجُودِهِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَلُغَةِ الْعَرَبِ، مُنَبِّهِينَ عَلَىٰ مَا لَهُ مِنْ أَخْطَارٍ، تَرَكَتْ بَصَمَاتِهَا وَاضِحَةً فِي مَجَالِ النَّيْلِ مِنْ أُصُولِ هَذَا الدِّينِ الحَنِيفِ، وَزَعْزَعَةَ - بَلْ وَتَحْطِيمِ - مُرْتَكَزَاتِهِ المُثْلَىٰ بِاعْتِبَارِهِ الطَّاغُوتَ الرَّدِيفَ لِطَاغُوتَيِ: التَّأْوِيلِ، وَتَقْدِيمِ الْعَقْلِ عَلَىٰ النَّقْلِ وَالتَّحَاكُمِ إِلَيْهِ فِي مَجَالاتِ الْعَقِيدَةِ، وَالتَّشْرِيعِ، وَالتَّفْسِيرِ، وَالاجْتِهَادِ.

الْقَوْلُ بِالمَجَازِ بِدْعَةُ ضَلالَةٍ:

فَالْقَوْلُ بِالمَجَازِ بِدْعَةٌ مُحْدَثَةٌ، وَاصْطِلاحٌ حَادِثٌ، مَا عُرِفَ إِلاَّ بَعْدَ الْقُرُونِ الثَّلاثَةِ الأُولَىٰ المَشْهُودِ لَهَا بِالخَيْرِيَّةِ.

فَمَا نُقِيلَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ - رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِم أَجْمَعِينَ - وَلا مِنَ التَّابِعِينَ، وَلا مِنْ تَابِعِيهِمْ بِإِحْسَانٍ - أَنَّهُ قَالَ بِهِ، أَوْ أَشَارَ إِلَيْهِ.

كَمَا لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الأَئِمَّةِ المَشْهُورِينَ فِي الْعِلْمِ: كَأَبِي حَنِيفَةَ، وَمَالِكٍ، وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْهِ، أَوِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ.

وَقَدْ أُنْكِرَ الْمَجَازُ فِي الْقُرْآنِ، وَلُغَةِ الْعَرَبِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَمِمَّنْ أَنْكَرَهُ أَبُو إِسْحَاقَ

= بَلْ وَلا تَكَلَّمَ بِهِ - أَوِ الْتَفَتَ إِلَيْهِ - أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ: كَالْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ، وَسِيبَوَيْهِ، وَأَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلاءِ، وَالْكِسَائِيِّ، وَالْفَرَّاءِ، وَأَبِي زَيْدٍ الأَنْصَارِيِّ، وَالأَصْمَعِيِّ، وَأَبِي عَمْرٍو الشَّيْبَانِيِّ.

وَأَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ بِلَفْظِ (الْمَجَازِ): أَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ[1] بْنُ الْمُثَنَّىٰ الْمُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٢١٠ هـ)، صَنَّفَ بِعُنْوَانِ (مَجَازِ الْقُرْآنِ)، إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَعْنِ بِهِ قَسِيمَ الْحَقِيقَةِ، وَإِنَّمَا عَنَىٰ بِمَجَازِ الآيَةِ: مَعْنَاهَا وَتَفْسِيرَهَا عَلَىٰ عَادَةِ غَيْرِهِ مِمَّنْ سَمَّىٰ كِتَابَهُ فِي فَهْمِ دِلالاتِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ (مَعَانِي الْقُرْآنِ)، لَيْسَ غَيْرُ. =

(١) أَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّىٰ الْخَارِجِيُّ الْمَجَازِيُّ: وُلِدَ سَنَةَ عَشْرٍ وَمِائَةٍ، قَالَ عَنْهُ الذَّهَبِيُّ فِي «السِّيَرِ» (٩/٤٤٥): «لَمْ يَكُنْ صَاحِبَ حَدِيثٍ، وَإِنَّمَا أَوْرَدْتُهُ لِتَوَسُّعِهِ فِي عِلْمِ اللِّسَانِ، وَأَيَّامِ النَّاسِ».

وَقَالَ عَنْهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ - كَمَا فِي «الْمَعَارِفِ» (٥٤٣)، وَ«السِّيَرِ» (٩/٤٤٦) -: «كَانَ الْغَرِيبُ وَأَيَّامُ الْعَرَبِ أَغْلَبَ عَلَيْهِ، وَكَانَ لا يُقِيمُ الْبَيْتَ إِذَا أَنْشَدَهُ، وَيُخْطِئُ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ نَظَرًا، وَكَانَ يُبْغِضُ الْعَرَبَ، وَأَلَّفَ فِي مَثَالِبِهَا كُتُبًا، وَكَانَ يَرَىٰ رَأْيَ الْخَوَارِجِ».

وَقَالَ الذَّهَبِيُّ - أَيْضًا - فِي «السِّيَرِ» (٩/٤٤٧): «قَالَ أَبُو حَاتِمٍ السِّجِسْتَانِيُّ: كَانَ يُكْرِمُنِي بُنَاءً عَلَىٰ أَنَّنِي مِنْ خَوَارِجِ سِجِسْتَانَ.

وَقِيلَ: كَانَ يَمِيلُ إِلَىٰ الْمُرْدِ؛ أَلا تَرَىٰ أَبَا نُوَاسٍ حَيْثُ يَقُولُ:

صَلَّىٰ الإِلَهُ عَلَىٰ لُوطٍ وَشِيعَتِهِ ... أَبَا عُبَيْدَةَ، قُلْ بِاللهِ آمِينَا

فَأَنْتَ عِنْدِي - بِلا شَكٍّ - بَقِيَّتُهُمْ ... مُنْذُ احْتَلَمْتَ، وَقَدْ جَاوَزْتَ سَبْعِينَا

قُلْتُ (أَيْ: الذَّهَبِيُّ): قَدْ كَانَ هَذَا الْمَرْءُ مِنْ بُحُورِ الْعِلْمِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يَكُنْ بِالْمَاهِرِ بِكِتَابِ اللهِ، وَلا الْعَارِفِ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ - ﷺ -، وَلا الْبَصِيرِ بِالْفِقْهِ وَاخْتِلافِ أَئِمَّةِ الْمَذَاهِبِ، بَلْ كَانَ مُعَافًى فِي مَعْرِفَةِ حِكْمَةِ الأَوَائِلِ، وَالْمَنْطِقِ، وَأَقْسَامِ الْفَلْسَفَةِ، وَلَهُ نَظَرٌ فِي الْمَعْقُولِ، وَلَمْ يَقَعْ لَنَا شَيْءٌ مِنْ عَوَالِي رُوَايَتِهِ» اهـ.

قُلْتُ (أَيْ: فَيْصَلٌ): قَدْ عَرَفْتَ - أَخِي - حَالَ الرَّجُلِ وَانْحِرَافَهُ، وَعَرَفْتَ مِنْ أَيْنَ جَاءَ بِهَذِهِ الْبَلايَا، إِنَّمَا هِيَ مِنْ عِلْمِ الْكَلامِ، مِنْ حِكْمَةِ الأَوَائِلِ (كَسُقْرَاطٍ وَبُقْرَاطٍ)، وَالْمَنْطِقِ، وَأَقْسَامِ الْفَلْسَفَةِ، فَنَتَجَ عَنْ ذَلِكَ أَشْأَمُ مَوْلُودٍ عَلَىٰ أَهْلِهِ، اسْمُهُ الْمَجَازُ، وَهَذَا الْمَوْلُودُ نَشَأَ وَتَرَعْرَعَ فِي أَحْضَانِ الْفِرَقِ الْمُنْحَرِفَةِ: كَالْمُعْتَزِلَةِ، وَالأَشَاعِرَةِ، وَالْمَاتُرِيدِيَّةِ، وَالْجَهْمِيَّةِ، فَهُوَ الْكَهْفُ الثَّانِي الَّذِي يَفْزَعُونَ إِلَيْهِ - بَعْدَ عِلْمِ الْكَلامِ - عِنْدَمَا تُوَاجِهُهُمْ صَوَاعِقُ أَهْلِ السُّنَّةِ مَعَهُمْ، كَمَا قِيلَ:

وَإِنَّ عَنَاءً أَنْ تُفْهِمَ جَاهِلاً ... فَيَحْسَبُ - جَهْلاً - أَنَّهُ مِنْكَ أَعْلَمُ

مَتَىٰ يَبْلُغُ الْبُنْيَانُ يَوْمًا تَمَامَهُ ... إِذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَغَيْرُكَ يَهْدِمُ؟!

الإسْفِرَائِينِيُّ، وَالإِمَامُ ابنُ تَيْمِيَّةَ فِي فَتَاوِيهِ، وَتَبِعَهُ تِلْمِيذُهُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الصَّوَاعِقِ

= كَمَا وردَ اسْتِعْمَالُ لَفْظِ (المجَازِ) عَلَىٰ لسَانِ الإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ المُتَوَفَّىٰ سَنَةَ (٢٤١هـ) فِي كِتَابِهِ «الرَّدُّ عَلَىٰ الجَهْمِيَّةِ وَالزَّنَادِقَة» (ص١٠١)، حَيْثُ قَالَ - رَحِمَهُ اللهُ - : «أَمَّا قَوْلُهُ - سُبْحَانَهُ - لِمُوسَىٰ: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشُّعَرَاءُ: ١٥]، فَهَذَا مِنْ مَجَازِ اللُّغَةِ، يَقُولُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ: إِنَّا سَنُجْرِي عَلَيْكَ رِزْقَكَ، إِنَّا سَنَفْعَلُ بِكَ كَذَا.

وأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، فَهُوَ جَائِزٌ فِي اللُّغَةِ، يَقُولُ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ لِلرَّجُلِ: سَأُجْرِي عَلَيْكَ رِزْقَكَ، أَوْ سَأَفْعَلُ بِكَ خَيْرًا».

وَوَاضِحٌ أَنَّ مُرَادَ أَحْمَدَ مِن اسْتِعْمَالِ لَفْظِ (المجَازِ): أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَجُوزُ فِي اللُّغَةِ: كَأَنْ يَقُولَ الْعَظِيمُ الَّذِي لَهُ أَعْوَانٌ: إِنَّا فَعَلْنَا كذا، وَسَوْفَ نَفْعَلُ كَيْتَ، لا أَنَّهُ اسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ فِي غَيْرِ مَا وُضِعَ لَهُ، وأَنَّهُ خِلافُ الحَقِيقَةِ...، وَمِمَّا يُؤَكِّدُ مُرَادَهُ هَذَا قَوْلُهُ فِي التَّعْلِيقِ عَلَىٰ الآيَةِ الثَّانِيَةِ: «فَهُوَ جَائِزٌ فِي اللُّغَةِ»، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّهُ أَرَادَ بِـ(المجازِ) الجَائِزَ لُغَةً، لا المَجَازَ بِمَدْلُولِهِ الاصْطِلاحِيِّ الَّذِي وَضَعَهُ المُتَأَخِّرُونَ، وَتَعَارَفُوا عَلَيْهِ.

وَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ بِالمجَازِ - بِمَعْنَاهُ الاصْطِلاحِيِّ، الَّذِي هُوَ نَقِيضُ الحَقِيقَةِ - المُعْتَزِلَةُ، وَالجَهْمِيَّةُ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكَلامِ، اشْتَهَرَ الْقَوْلُ بِهِ عَنْهُمْ بَعْدَ المِائَةِ الرَّابِعَةِ لِلْهِجْرَةِ، وَلَيْسَ مِنْ بَيْنِ مَنْ قَالَ بِهِ مِنْهُمْ عَلَمٌ مِنْ أَعْلامِ الإِسْلامِ الَّذِينَ يُوثَقُ بِهِمْ فِي فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الإِسْلامِ المُخْتَلِفَةِ: كَالتَّفْسِيرِ، أَوِ الحَدِيثِ، أَوِ الْفِقْهِ، أَوْ عِلْمِ أُصُولِ الْفِقْهِ، أَوِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

فَدَلَّ هَذَا كُلُّهُ: عَلَىٰ أَنَّ الْقَوْلَ بِالمجَازِ إِنَّمَا هُوَ بِدْعَةٌ اعْتِزَالِيَّةٌ مَحْضَةٌ، وَصَنْعَةٌ كَلامِيَّةٌ صِرْفَةٌ، اجْتُهِدَ فِي نَشْرِهَا، وَالتَّبْشِيرِ بِهَا، وَتَدْعِيمِ أُصُولِهَا، وَوَضْعِ قَوَاعِدِهَا بَعْدَ المِائَةِ الرَّابِعَةِ؛ لِتَحْقِيقِ أَغْرَاضٍ مَسْتُورَةٍ، تَلْتَقِي فِي نِهَايَتِهَا لِلْعَمَلِ عَلَىٰ زَعْزَعَةِ أُصُولِ هَذَا الدِّينِ، وَالنَّيْلِ مِنْ ثَوَابِتِهِ، وَصَرْفِ النَّاسِ عَنْ فَهْمِ هَذِهِ الأُصُولِ وَتِلْكُمُ الثَّوَابِتِ الْفَهْمَ السَّدِيدَ، مُوَاكِبَةً فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لِبِدْعَةٍ أُخْرَىٰ، ظَهَرَتْ هِيَ الأُخْرَىٰ مُتَزَامِنَةً مَعَهَا، مُوَافِقَةً لَهَا فِي المَصْدَرِ وَالنَّشْأَةِ، وَالمَنْهَجِ وَالْغَرَضِ، أَلا وَهِيَ: بِدْعَةُ التَّأْوِيلِ.

هَذَا... عِلْمًا بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ فِي الْقَوعَلِ بِالمجَازِ وَالتَّأْوِيلِ، أَدْنَىٰ ذَرَّةِ خَيْرٍ - أَوْ أَدَقُّ شَعْرَةِ فَضْلٍ - لَكَانَ صُحْبَةُ رَسُولِ اللهِ - ﷺ - وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ المُفَضَّلَةِ أَسْبَقَ النَّاسِ إِلَيْهِ بِاعْتِبَارِهِمُ السَّابِقِينَ - أَبَدًا - إِلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ وَفَضْلٍ، لا أَنْ يَكُونَ سَبَّاقًا إِلَيْهِ أَعْلاجُ عِلْمِ الْكَلامِ، وَصَيَارِفَةُ الْبِدَعِ، وَمُتَنَطِّعُو مَذْهَبِ الاعْتِزَالِ.

تَعْطِيلُ الصِّفَاتِ:

ثُمَّ إِنَّ الْقَوْلَ بِالمجَازِ قَادَ إِلَىٰ الْقَوْلِ بِتَعْطِيلِ صِفَاتِ الخَالِقِ - سُبْحَانَهُ -، وَقَدْ رَكِبَهُ المُعَطِّلُونَ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ نَفْيِ صِفَاتِهِ - جَلَّ وَعَلا - الْوَارِدَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَقَدْ جَعَلُوا يَدَ اللهِ، وَوَجْهَهُ، وَسَاقَهُ، =

الْمُرْسَلَة، حَيْثُ عَقَدَ فيه فَصْلاً مُطَوَّلاً بِعُنْوَانِ (فَصْلٌ فِي كَسْرِ الطَّاغُوتِ الثَّالِثِ

= واسْتِوَاءَهُ، وَنُزُولَهُ، وَعُلُوَّهُ، وَكَلامَهُ، وَنُورَهُ، وَمَجِيئَهُ... مَجَازَات، لا تُرَادُ بِهَا حَقَائِقَهَا، ثُمَّ انْطَلَقُوا إِلَىٰ نَفْيِهَا، قَائِلِينَ:

إِنَّهُ لا يَدَ لَهُ - سُبْحَانَهُ - وَلا سَاقَ، وَلا وَجْهَ، وَلا اسْتِوَاءَ، وَلا نُزُولَ، وَلا عُلُوَّ، قَالُوا: وَيَدُ اللهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ مَا منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ [ص: ٧٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المَائِدَةُ: ٦٤] - مَجَازٌ، هِيَ بِمَعْنَىٰ: النِّعْمَةِ أَوِ الْقُدْرَةِ. وَوَجْهُهُ - جَلَّ جَلالُهُ - حَيْثُ وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَجَازٌ: إِمَّا عَلَىٰ تَقْدِيرِ أَنَّهُ لَفْظٌ زَائِدٌ، أَوْ أَنَّهُ بِمَعْنَىٰ الذَّاتِ، فَفِي قَوْلِهِ - تَعَالَىٰ - : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرَّحْمَن: ٢٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [اللَّيْلُ: ٢٠ - ٢١] - يَكُونُ التَّقْدِيرُ: وَيَبْقَىٰ رَبُّكَ. وَإِلاَّ ابْتِغَاءَ رَبِّهِ، أَوْ: وَيَبْقَىٰ ذَاتُ رَبِّكَ، وَابْتِغَاءَ ذَاتِهِ.

وَالرَّحْمَنُ... الَّذِي هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ - سُبْحَانَهُ - قَالُوا عَنْهُ: إِنَّهُ مَجَازٌ؛ لأَنَّ الرَّأْفَةَ وَالشَّفَقَةَ وَالرَّحْمَةَ إِنَّمَا هِيَ رِقَّةٌ تَعْتَرِي الْقَلْبَ، وَهِيَ الْكَيْفِيَّاتُ النَّفْسِيَّةُ، وَاللهُ مُنَزَّهٌ عَنْهُ ذَلِكَ.

يَقُولُونَ هَذَا، وَاللهُ - تَعَالَىٰ - يَقُولُ: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ [الأَعْرَافُ: ١٨٠]، وَهَلْ هُنَا إِلْحَادٌ فِي أَسْمَاءِ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ إِنْكَارِ حَقَائِقِهَا، وَالتَّصْرِيحِ بِأَنَّهَا مَجَازَاتٌ؟!.

قَالُوا: وَالْمَجِيءُ الْوَارِدُ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الْفَجْرُ: ٢٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ [الْبَقَرَةُ: ٢١٠] - إِنَّمَا هُوَ مِنْ مَجَازِ الْحَذْفِ، وَتَقْدِيرُهُ: وَجَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ. وَالاسْتِوَاءُ الْوَارِدُ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]. - مَجَازٌ، بِمَعْنَىٰ اسْتَوْلَىٰ، أَوْ بِمَعْنَىٰ: قَصَدَ وَأَقْبَلَ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَلَيْسَ هُوَ الاسْتِوَاءُ الَّذِي بِمَعْنَىٰ: اسْتَقَرَّ؛ لأَنَّ الاسْتِوَاءَ - بِهَذَا الْمَعْنَىٰ - لا يَكُونُ إِلاَّ لِلْمَخْلُوقِينَ. وَأَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ اللهُ نُوراً فِي قَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [النُّورُ: ٣٥]، وَقَالُوا: هَذَا مَجَازٌ مَعْنَاهُ: مُنَوِّرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بِالنُّورِ الْمَخْلُوقِ، أَوْ بِمَعْنَىٰ: هَادِي أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ (النُّورَ) اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ، فَهُوَ نُورٌ وَحِجَابُهُ النُّورُ، وَهَذَا مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الآيَاتُ الْكَرِيمَةُ، وَالأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ الصَّحِيحَةُ الثَّابِتَةُ.

كَمَا أَنْكَرُوا صِفَةَ الْفَوْقِيَّةِ وَالْعُلُوِّ لِلْخَالِقِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - فِي قَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأَنْعَامُ: ١٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النَّحْلُ: ٥٠] قَائِلِينَ: هِيَ مَجَازٌ بِمَعْنَىٰ: فَوْقِيَّةِ الرُّتْبَةِ وَالْقَهْرِ، لا بِمَعْنَىٰ: الْفَوْقِيَّةِ الَّتِي هِيَ عُلُوُّ ذَاتِ الشَّيْءِ.

وَفِي قَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ [النِّسَاءُ: ١٦٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] - أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ (كَلامَ اللهِ) بِصَوْتٍ وَحَرْفٍ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، وَقَالُوا: =

الَّذي وَضَعَتْهُ الْجَهْمِيَّةُ لِتَعْطِيلِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَهُوَ طَاغُوتُ الْمَجَازِ)، وَقَدْ ذَكَرَ فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ وَجْهًا فِي إِبْطَالِ حُجَجِ الْقَائِلِينَ بِالْمَجَازِ، وَكَشَفَ

= بَلْ هُوَ مَجَازٌ، إِذْ أَنَّ اللهَ لا يَتَكَلَّمُ بِصَوْتٍ وَحَرْفٍ، وَإِلاَّ أَشْبَهَ المَخْلُوقِينَ، بَلْ هُوَ خَلَقَ كَلامًا أَسْمَعَهُ مُوسَىٰ.

أَمَّا فِي قَوْلِهِ – ﷺ –: «يَنْزِلُ رَبُّنَا – تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ – كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟» [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١١٤٥)، وَمُسْلِمٌ (٧٥٨)] – فَقَدْ قَالُوا: إِنَّ النُّزُولَ المُرَادَ هُنَا: إِنَّمَا هُوَ نُزُولُ أَمْرِهِ – سُبْحَانَهُ – لا نُزُولُهُ هُوَ؛ لأَنَّ لَفْظَ (يَنْزِلُ) هُنَا مَجَازٌ، لا حَقِيقَةٌ.

وَهَكَذَا مَضَوْا فِي نَفْيِ الصِّفَاتِ الثَّابِتَةِ لِلْخَالِقِ – سُبْحَانَهُ – بِالْوَحْيِ عَنْ طَرِيقِ الْقَوْلِ بِالمَجَازِ، وَحُجَّتُهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ: أَنَّ الأَلْفَاظَ الَّتِي تُطْلَقُ عَلَىٰ الخَالِقِ وَالمَخْلُوقِ، إِنَّمَا تَكُونُ هِيَ، وَأَفْعَالُهَا، وَمَصَادِرُهَا، وَأَسْمَاءُ الْفَاعِلِينَ، وَالصِّفَاتُ المُشْتَقَّةُ مِنْهَا – حَقِيقَةً فِي حَقِّ المَخْلُوقِ، مَجَازًا فِي حَقِّ الخَالِقِ، وَلَوْ اطَّرَدَ هَذَا الْقِيَاسُ، فَإِنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ لا يَكُونُ مَوْجُودًا حَقِيقَةً، وَلا حَيًّا حَقِيقَةً، وَلا مُرِيدًا حَقِيقَةً، أَوْ قَادِرًا، أَوْ مَالِكًا عَلَىٰ الحَقِيقَةِ؛ لأَنَّ الوُجُودَ، وَالحَيَاةَ، وَالإِرَادَةَ، وَالْقُدْرَةَ، وَالمُلْكَ – هِيَ حَقَائِقُ فِي حَقِّ المَخْلُوقِينَ، فَلا تَكُونُ إِلاَّ مَجَازَاتٍ فِي حَقِّ خَالِقِ هَؤُلاءِ المَخْلُوقِينَ.

وَهَذَا هُوَ عَيْنُهُ المَذْهَبُ الَّذِي صَارَ إِلَيْهِ جَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ، وَدَرَجَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ مِنْ بَعْدِهِ.

وَفِي الحَقِّ إِنَّ كُلَّ مَنْ يُمْعِنُ النَّظَرَ فِي حَقِيقَةِ المَجَازِ وَمَآلِهِ يَجِدُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لازِمٌ لِكُلِّ مَنِ ادَّعَىٰ المَجَازَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ وَأَفْعَالِهِ لُزُومًا لا مَحِيصَ لَهُ عَنْهُ بِحَالٍ. قَالَ الإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ – تَعْلِيقًا عَلَىٰ هَذَا الَّذِي ذَهَبُوا إِلَيْهِ – «مُخْتَصَرُ الصَّوَاعِقِ» (٢/٢٨٦) –: «فَإِذَا كَانَ كَلامُ اللهِ، وَتَكْلِيمُهُ، وَخِطَابُهُ، وَنِدَاؤُهُ، وَقَوْلُهُ، وَأَمْرُهُ، وَنَهْيُهُ، وَوَصِيَّتُهُ، وَعَهْدُهُ، وَحُكْمُهُ، وَإِنْبَاؤُهُ، وَإِخْبَارُهُ، وَشَهَادَتُهُ كُلُّ أُولَئِكَ مَجَازًا، لا حَقِيقَةَ لَهُ – بَطَلَتِ الحَقَائِقُ كُلُّهَا –؛ فَإِنَّ الحَقَائِقَ إِنَّمَا حَقَّتْ بِكَلِمَاتِ تَكْوِينِهِ: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يُونُس: ٨٢]؛ فَمَا حَقَّتِ الحَقَائِقُ إِلاَّ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ – سُبْحَانَهُ –» اهـ.

تحطيم مدلول كلمة التوحيد:

كَمَا وَإِنَّ الْقَوْلَ بِالمَجَازِ يُؤَدِّي إِلَىٰ: المَسَاسِ بِمَفْهُومِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَالتَّشْكِيكِ فِي دِلالَتِهَا، وَزَعْزَعَةِ مَا تَرْمِي إِلَيْهِ مِنْ حَقَائِقَ، وَدِلالاتٍ، وَمَعَانٍ.

قَالُوا: إِنَّ كُلَّ عَامٍّ إِذَا خُصَّ صَارَ مَجَازًا، وَلَوْ كَانَ التَّخْصِيصُ بِطَرِيقَةِ الاسْتِثْنَاءِ، وَعَلَيْهِ فَإِنَّ (لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ) مَجَازٌ، بِاعْتِبَارِهَا عُمُومًا قَدْ خُصَّ بِطَرِيقِ الاسْتِثْنَاءِ، فَهِيَ لَيْسَتْ عَلَىٰ حَقِيقَةِ مَنْطُوقِهَا، وَدِلالَةِ لَفْظِهَا.

=

عَوَارَهُ، وَمَا لَهُ مِنْ سَيِّئِ الأَثَرِ عَلَىٰ عَقِيدَةِ الْمُسْلِمِ، وَتَوْجِيهِ آيَاتِ اللهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ.

= وَهُمْ بِذَلِكَ فَاقُوا - فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ - مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنَّ أُولَئِكَ قَدِ اعْتَرَفُوا بِاللهِ رَبًّا وَخَالِقًا، إِلاَّ أَنَّهُمْ رَفَضُوا الإِذْعَانَ لِمَدْلُولِ «لا إِلَهَ»، فَأَقَرُّوا بِوُجُودِ آلِهَةٍ أُخْرَىٰ مَعَ اللهِ، فِي حِينِ أَنَّ هَؤُلاءِ جَعَلُوا كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ بِرُمَّتِهَا مَحْمُولَةً عَلَىٰ الْمَجَازِ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مِنْ عَلامَاتِ الْمَجَازِ: صِحَّةَ نَفْيِهِ، وَنَقْصَ دَرَجَةِ دِلالَتِهِ عَنْ دَرَجَةِ دِلالَةِ الْحَقِيقَةِ.

ثُمَّ إِنَّ بَعْضَهُمْ ذَهَبَ إِلَىٰ: أَنَّ (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ) مَجَازٌ - أَيْضًا -، كَيْفَ؟!.

ذَلِكَ أَنَّ لَفْظَ (رَسُول) قُيِّدَ بِطَرِيقِ الإِضَافَةِ، وَكُلُّ مُقَيَّدٍ - عِنْدَهُمْ - مَجَازٌ؛ لأَنَّ اللَّفْظَ إِنَّمَا وُضِعَ أَصْلاً مُطْلَقًا لا مُقَيَّدًا، وَاسْتِعْمَالُهُ مُقَيَّدًا اسْتِعْمَالٌ لَهُ فِي غَيْرِ مَا وُضِعَ لَهُ، كَاللَّفْظِ الْعَامِّ إِذَا خُصَّ سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ، فَهَذَا صَارَ - بِتَخْصِيصِهِ - مَجَازًا، كَمَا صَارَ هَذَا - بِتَقْيِيدِهِ - مَجَازًا - أَيْضًا -، وَبِذَا تَوَصَّلُوا إِلَىٰ تَحْطِيمِ مَدْلُولِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَالاتِّبَاعِ بِشِقَّيْهَا: (لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ)، و(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ)!.

وَكَفَىٰ بِالْمَجَازِ فَسَادًا إِيصَالُهُ أَصْحَابَهُ وَالْقَائِلِينَ بِهِ إِلَىٰ هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ التَّنَطُّعِ وَالْغُلُوِّ وَالانْحِرَافِ.

قَصْرُ (الإيمان) عَلَىٰ التَّصْدِيقِ:

ثُمَّ إِنَّهُمْ - عَنْ طَرِيقِ قَوْلِهِمْ بِالْمَجَازِ - قَصَرُوا مَفْهُومَ (الإِيمَان) عَلَىٰ التَّصْدِيقِ، وَأَخْرَجُوا مِنْ مُسَمَّاهُ الْعَمَلَ.

قَالُوا: فَلَفْظُ «الإِيمَان» يَدُلُّ عَلَىٰ التَّصْدِيقِ حَقِيقَةً، وَمَا دِلالَتُهُ عَلَىٰ الأَعْمَالِ إِلاَّ بِطَرِيقِ الْمَجَازِ، وَبِذَلِكَ فَرَّغُوا «الإِيمَانَ» مِنْ مُحْتَوَاهُ، وَخَالَفُوا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ الصَّرِيحَةُ الصَّحِيحَةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَحُجَّتُهُمْ فِي ذَلِكَ: أَنَّ لَفْظَ «الإِيمَان» لُغَةً: التَّصْدِيقُ، وَهُوَ الْعِلْمُ، وَمَحَلُّهُ الْقَلْبُ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ - تَعَالَىٰ -: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يُوسُف: ١٧]، أَيْ: بِمُصَدِّقٍ لَنَا، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الإِيمَانُ فِي الشَّرْعِ هُوَ الإِيمَانَ الْمَعْرُوفَ فِي اللُّغَةِ، وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ الْجَهْمِيَّةِ، وَسَائِرِ الْمُعْتَزِلَةِ.

وَالْجَوَابُ عَلَىٰ هَذَا: إِنَّنَا لَمْ نَسْمَعْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ السَّابِقِينَ أَنَّهُ نَقَلَ عَنِ الْعَرَبِ إِجْمَاعَهُمْ عَلَىٰ أَنَّ الإِيمَانَ إِنَّمَا هُوَ بِمَعْنَىٰ التَّصْدِيقِ، بَلْ إِنَّ هَؤُلاءِ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ، إِنَّمَا يَنْقُلُونَ الْكَلامَ الْمَسْمُوعَ مِنَ الْعَرَبِ فِي زَمَانِهِمْ، وَمَا سَمِعُوهُ مِنْ دَوَاوِينِ أَشْعَارِهِمْ، لا أَنَّهُمْ يَنْقُلُونَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: هَذَا اللَّفْظُ لَيْسَ مَعْنَاهُ إِلاَّ كَذَا وَكَذَا، وَلَوْ قُدِّرَ - جَدَلاً - أَنَّهُمْ نَقَلُوا عَنْهُمْ مَا يُفْهِمُ مِنْهُ أَنَّ الإِيمَانَ مَعْنَاهُ: التَّصْدِيقُ، فَإِنْ نَقَلَ الْمُسْلِمِينَ كَافَّةً - وَبِالْخَبَرِ الْمُتَوَاتِرِ - لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَكَلامِ الْمُصْطَفَىٰ - ﷺ - لا شَكَّ أَبْلَغُ مِنْ جَمِيعِ نُقُولِهِمْ، وَقَدْ دَلَّتْ آيَاتُ الْقُرْآنِ، وَالأَحَادِيثُ الشَّرِيفَةُ عَلَىٰ أَنَّ مَدْلُولَ الإِيمَانِ مُتَضَمِّنٌ لِلْعَمَلِ: =

١ - قَالَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المُؤْمنونَ: ١ - ١١]، فَقَدْ سَاقَ - سُبْحَانَهُ - مَجْمُوعَةً مِنَ الأَعْمَالِ، وَجَعَلَهَا عُمْدَةً إِيمَانِ المُؤْمِنِ، وَدَلِيلَ فَلَاحِهِ فِي الدَّارَيْنِ.

٢ - وَقَالَ: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [السَّجْدَة: ١٥]، فَنَفَىٰ الإِيمَانَ عَنْ غَيْرِ هَؤُلَاءِ مِمَّنْ كَانَ إِذَا ذُكِّرَ بِالْقُرْآنِ لَا يَفْعَلُ مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ السُّجُودِ وَالتَّسْبِيحِ، وَاتَّصَافِهِمْ بِعَدَمِ الاسْتِكْبَارِ، وَهَذِهِ كُلُّهَا أَعْمَالٌ دَاخِلَةٌ فِي صَمِيمِ مُسَمَّىٰ: « الإيمان ».

٣ - وَقَالَ: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢]، فَجَعَلَ مِنَ « الإيمان » عَدَمَ مُوَادَّةِ أَهْلِ الْكُفْرِ، وَالرُّكُونِ إِلَيْهِمْ.

٤ - وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: « إِنَّ مَاتَ عَلَىٰ الْقِبْلَةِ - قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ - رِجَالٌ وَقُتِلُوا، فَلَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [الْبَقَرَة: ١٤٣] » [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٤٠)].

فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ - الصَّلَاةَ مِنَ الإِيمَانِ؛ لأَنَّ مَعْنَىٰ الآيَةِ: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ صَلَاتَكُمْ، الَّتِي كُنْتُمْ تَتَوَجَّهُونَ فِيهَا إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ قَبْلَ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ إِلَىٰ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ.

كَمَا وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ تُفِيدُ أَنَّ « الْعَمَلَ » مِنَ « الإِيمَانِ »:

١ - فَقَدْ قَالَ - ﷺ - : « الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ » [مُسْلِمٌ (١ / ٤٦)].

٢ - وَقَالَ - ﷺ - : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّىٰ يُحِبَّ لِجَارِهِ - أَوْ لأَخِيهِ - مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (١٣)، وَمُسْلِمٌ (١ / ٤٩)].

٣ - وَقَالَ - ﷺ - : « لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ - يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ - حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ » [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢٤٧٥)، وَمُسْلِمٌ (١ / ٥٤)].

فَجَعَلَ - ﷺ - قَوْلَ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَإِمَاطَةَ الأَذَىٰ، وَالْحَيَاءَ، وَمَحَبَّةَ المُسْلِمِ وَالْجَارِ، وَتَجَنُّبَ الْكَبَائِرِ: مِنَ الزِّنَا، وَالسَّرِقَةِ، وَشُرْبِ الْخَمْرِ، وَالنُّهْبَىٰ - كُلَّ أُولَئِكَ مِنَ الإِيمَانِ، وَهِيَ جُمْلَةُ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ.

= وَمِنْ هُنا كَفَّرَ الإمَامُ أَحْمَدُ، وَوَكِيعُ بْنُ الجَرَّاحِ – شَيْخُ الشَّافِعِيِّ – مَنْ قَالَ: إنَّ الإيمَانَ هُوَ التَّصْدِيقُ فَقَطْ. [مَجْمُوعُ الْفَتَاوَىٰ (٧/ ١٢٠)].

وَقَدْ ضَرَبَ الْقَائِلُونَ بِالمجَازِ بِكُلِّ هَذه الأدِلَّة عُرْضَ الحَائط، وَذَهَبُوا يَعْتَمِدُونَ عَلَىٰ مُغَالَطَاتٍ ذِهْنِيَّةٍ بَارِدَةٍ لِلتَّدْلِيلِ عَلَىٰ أَنَّ الإيمَانَ إنَّمَا هُوَ التَّصْدِيقُ فَقَطْ، وأَنَّ الْعَمَلَ لا يَدْخُلُ فِي مُسَمَّاه إلاَّ بِطَرِيقِ المجَازِ. وَهِيَ مَهْزَلَةٌ مُذْهِلَةٌ وَبَارِدَةٌ، جَنَتْ عَلَىٰ الإسْلام، وَحَطَّمَتْ أَصْلَ أُصُولِه، وأَرْسَىٰ دَعَائِمِه.

صَرْفُ أَلْفَاظِ الْوَحْيِ عَنْ دِلالاتِهَا الحَقِيقَةِ:

وَالْقَوْلُ بِالمجَازِ يُؤَدِّي إِلَىٰ صَرْفِ أَلْفَاظِ الْوَحْيِ بِشِقَّيْهِ: الإلَهِيِّ، وَالنَّبَوِيِّ، عَنْ دِلالاتِهَا الحَقِيقِيَّةِ الَّتِي مَا جِيءَ بِهَا إلاَّ لِتَأْدِيَةِ مَعَانِيهَا عَنْ طَرِيقِهَا.

فَقَوْلُهُمْ: إنَّ أَكْثَرَ أَلْفَاظِ اللُّغَةِ مَجَازٌ، وَكَذَلِكَ عَامَّةُ أَفْعَالِهَا: كَقَامَ، وَقَعَدَ، وَانْطَلَقَ، وَجَاءَ؛ لأَنَّ الْفِعْلَ يُسْتَفَادُ مِنْهُ الدِّلالَةُ عَلَىٰ اسْتِغْرَاقِ الجِنْسِ، فِي حِينِ أَنَّ الْفَاعِلَ لا يَكُونُ مِنْهُ تَأْدِيَةَ مَا يَسْتَغْرِقُ الْفِعْلِ.

فَمَثَلاً فِعْلُ «قَامَ» يَدُلُّ عَلَىٰ: اسْتِغْرَاقِ جِنْسِ الْقِيَامِ، وَالجِنْسُ يُطْلَقُ عَلَىٰ جَمِيعِ المَاضِي، وَجَمِيعِ الحَاضِرِ، وَجَمِيعِ الأُمُورِ الْكَائِنَاتِ، وَمِنْ كُلِّ مَنْ وُجِدَ مِنْهُ الْقِيَامَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لا يَجْتَمِعُ لإِنْسَانٍ وَاحِدٍ – فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَلا فِي مِئَةِ أَلْفِ سَنَةٍ – جَمِيعُ الْقِيَامِ الدَّاخِلُ تَحْتَ مَضْمُونِ دِلالَةِ الْفِعْلِ «قَامَ».

وَإِذَا كَانَ الأَمْرُ كَذَلِكَ، عَلِمْتَ أَنَّ «قَامَ زَيْدٌ» مَجَازٌ؛ لأَنَّ زَيْداً هَذَا – عِنْدَمَا قَامَ – لَمْ يَسْتَطِعْ أَدَاءَ الْقِيَامِ بِصُورَتِهِ الاسْتِغْرَاقِيَّةِ الْمُثْلَىٰ، وَلَنْ يَسْتَطِيعَ مَهْمَا حَاوَلَ وَأَجْلَبَ، فَكَانَ قَوْلُنَا عَنْهُ: بِأَنَّهُ «قَامَ» مَجَازاً.

وَعَلَيْهِ يَكُونُ قَوْلُه – تَعَالَىٰ –: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التَّوْبَة: ٣٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢١٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٤٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آلَ عِمْرَان: ٦]، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ الَّتِي فِيهَا ذِكْرُ فِعْلِه – سُبْحَانَهُ –، إنَّمَا تَكُونُ كُلُّهَا – بِحَسَبِ مَفْهُومِهِمْ – مَجَازاً.

قَالُوا: وَكَذَلِكَ أَفْعَالُ اللهِ – سُبْحَانَهُ – نَحْو: ﴿خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، وَمَا كَانَ مِثْلُهُ، أَلا تَرَىٰ أَنَّه – عَزَّ اسْمُهُ – لَمْ يَكُنْ بِذَلِكَ خَلَقَ أَفْعَالَنَا، وَلَوْ كَانَ خَالِقًا حَقِيقَةً لا مَحَالَةَ، لَكَانَ خَالِقُ الْكُفْرِ، وَالْعُدْوَانِ، وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَفْعَالِنَا، أَلا تَرَىٰ أَنَّ قَوْلَكَ: «ضَرَبْتُ عَمْرًا» مَجَازٌ؛ لأَنَّكَ إنَّمَا فَعَلْتَ بَعْضَ الضَّرْبِ لا جَمِيعَهُ، أَلا تَرَاكَ تَقُولُ ذَلِكَ، وَلَعَلَّكَ إنَّمَا ضَرَبْتَ يَدَهُ، أَوْ أُصْبَعَهُ، أَوْ نَاحِيَةً مِنْ نَوَاحِي =

= جَسَدِه؛ وَلِهَذَا إِذَا احْتَاطَ الإِنْسَانُ جَاءَ بِبَدَلِ الْبَعْضِ، وَقَالَ: ضَرَبْتُ زَيْدًا رَأْسَهُ» [هَذَا الْكَلامُ قَالَهُ ابْنُ جِنِّيٍّ، وَنَقَلَهُ عَنْهُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «مُخْتَصَرِ الصَّوَاعِقِ» (٢ / ٧٦ – ٧٧)].

قُلْتُ: وَبِذَلِكَ تُصْبِحُ أَلْفَاظُ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَكَلامُ الْمُصْطَفَىٰ – ﷺ – مَجَازَاتٍ، لا تَدُلُّ عَلَىٰ حَقَائِقِهَا بِحَالٍ، فَتَصِيرُ كَلِمَاتُ اللهِ، وَكَلامُ نَبِيِّهِ لَيْسَ أَكْثَرَ مِنْ تَمْتَمَاتٍ لا مُرَادَاتَ لَهَا، فَنَتَخَلَّصُ بِالتَّالِي مِنْ تَكَالِيفِهَا، وَنُطْلِقُ الْعِنَانَ لأَنْفُسِنَا نَفْعَلُ مَا نَشَاءُ، وَنَقُولُ مَا نَشَاءُ، مَا دَامَ أَنَّهُ لَيْسَ أَمَامَنَا مَا يُلْزِمُنَا بِفِعْلٍ أَوْ قَوْلٍ مُعَيَّنَيْنِ، أَوْ يَصْرِفُنَا عَنْ شَيْءٍ مِنَ الأَفْعَالِ وَالأَقْوَالِ، فَكُلُّ الأَلْفَاظِ مَجَازَاتٌ لا دَلالَةَ لَهَا، وَلا مَضْمُونَ وَلا مُحْتَوَىٰ، وَبِذَا نَصِلُ إِلَىٰ تَفْرِيغِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ مِنْ مُحْتَوَاهُمَا، وَنُصَيِّرُ مِنْهُمَا مُجَرَّدَ تَرَاتِيلَ وَتِلاوَاتٍ تُتْلَىٰ لِمُجَرَّدِ التَّبَرُّكِ، لَيْسَ غَيْرُ.

قَالُوا: «وَالتَّوْكِيدُ عَلامَةٌ مِنْ عَلامَاتِ الْمَجَازِ؛ وَعَلَيْهِ فَإِنَّ قَوْلَهُ – تَعَالَىٰ –: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النِّسَاءُ: ١٦٤] مَجَازٌ بِدَلِيلِ تَوْكِيدِهِ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ – تَعَالَىٰ – عَنْ بِلْقِيسَ مَلِكَةِ سَبَأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النَّمْلُ: ٢٣] فَهُوَ مَجَازٌ بِدَلِيلِ اسْتِخْدَامِ التَّوْكِيدِ بِـ(كُلّ)، وَهِيَ لَمْ تُؤْتَ لِحْيَةَ رَجُلٍ وَلا ذَكَرَهُ.

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ – أَيْضًا –: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزُّمَرُ: ٦٢] فَمَجَازٌ، فَهُوَ – سُبْحَانَهُ – شَيْءٌ، وَهُوَ مِمَّا يَسْتَثْنِيهِ الْعَقْلُ بِبَدِيهَتِهِ، وَلا يَحُوجُ إِلَىٰ التَّشَاغُلِ بِاسْتِثْنَائِهِ، فَإِنَّ الشَّيْءَ – كَائِنًا مَا كَانَ – لا يَخْلُقُ نَفْسَهُ». [انْظُرْ أَقْوَالَهُمْ هَذِهِ – وَغَيْرَهَا – فِيمَا نَقَلَهُ عَنْهُمُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي كِتَابِهِ «الصَّوَاعِقُ الْمُرْسَلَةُ» (٢ / ٨٢)].

وَقَدْ بَلَغَ بِهِمُ الْحَدُّ فِي التَّمَحُّلِ أَنْ قَالُوا: قَوْلُكَ: «قَطَعَ الأَمِيرُ اللِّصَّ» مَجَازٌ؛ لأَنَّ الْقَطْعَ قَدْ يَكُونُ بِأَمْرِهِ لا بِيَدِهِ، فَإِذَا قُلْتَ: «قَطَعَ الأَمِيرُ نَفْسُهُ اللِّصَّ» رَفَعْتَ الْمَجَازَ مِنْ جِهَةِ الْفَاعِلِ، وَصِرْتَ إِلَىٰ الْحَقِيقَةِ، وَلَكِنْ بَقِيَ عَلَيْكَ التَّجْوِيزُ فِي مَكَانٍ آخَرَ، وَهُوَ جِهَةُ اللِّصِّ، فَإِنَّمَا قَطَعَ مِنْهُ يَدَهُ، أَوْ رِجْلَهُ، لا كُلَّهُ، فَإِذَا احْتَطْتَ قُلْتَ: «قَطَعَ الأَمِيرُ نَفْسُهُ يَدَ اللِّصِّ»، وَهَذَا – أَيْضًا – مَجَازٌ، وَلَكِنْ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ، وَهِيَ أَنَّ الْيَدَ اسْمٌ لِلْعُضْوِ إِلَىٰ الْمَنْكِبِ، وَالأَمِيرُ لَمْ يَقْطَعْهَا كُلَّهَا، وَإِنَّمَا قَطَعَ بَعْضَهَا، فَإِذَا احْتَطْتَ قُلْتَ: «قَطَعَ الأَمِيرُ نَفْسُهُ يَدَ اللِّصِّ مَا بَيْنَ الْكُوعِ وَالأَصَابِعِ»، وَهَذَا – أَيْضًا – مَجَازٌ مِنْ جِهَةِ أَنَّكَ سَمَّيْتَهُ: لِصًّا، وَذَلِكَ يَقْتَضِي اسْتِغْرَاقَ جَمِيعِ أَفْرَادِ اللُّصُوصِيَّةِ، وَهُوَ مُحَالٌ بِاعْتِبَارِكَ أَوْقَعْتَ الْبَعْضَ عَلَىٰ الْكُلِّ، فَإِنِ احْتَطْتَ قُلْتَ: «قَطَعَ الأَمِيرُ نَفْسُهُ يَدَ مَنْ وُجِدَ مِنْهُ بَعْضُ اللُّصُوصِيَّةِ مَا بَيْنَ الْكُوعِ إِلَىٰ الأَصَابِعِ»!، وَهَذَا مَجَازٌ – أَيْضًا – مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْفِعْلَ «قَطَعَ» دَالٌّ عَلَىٰ جَمِيعِ أَفْرَادِ الْجِنْسِ قَاطِبَةً، مِنْ لَدُنْ آدَمَ – عَلَيْهِ السَّلامُ – إِلَىٰ آخِرِ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْبَشَرِيَّةِ، إِذْ هُوَ – فِي الْحَقِيقَةِ – وَاقِعٌ عَلَىٰ =

فَرْد واحد من أفراده، لا عليهم كُلُّهم، فإذا أردت الاحتياط لهذه المسألة، فعليك أن تقول تحديداً: «أوقع الأمير نفسه فرداً من أفراد القطع على يد واحد ممن وجد منه بعض اللصوصية، ما بين الكوع إلى الأصابع».. وبذا - فقط - تتحول العبارة من حيز المجاز إلى حيز الحقيقة!!.

فهل بقي سخف أبعد شأواً من هذا السخف؟!!، وهل هناك تمحل أبلغ سماجة من مثل هذا التمحل؟!.

المجاز سلم الباطنية:

ثم إن المجاز - ورديفه التأويل - هو السلم الذي اعتلته الفرق الباطنية من أجل بلوغ أغراضها، والتكأة التي اعتمدت عليها لزخرفة أفكارها، وعرضها على الناس بصورة جميلة مستحسنة بغية التدليس عليهم، وبالتالي إيقاعهم في شرك حبائلها الجهنمية الضالة.

قالوا: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» مجاز، لا يدل على ظاهر لفظه، وإنما هو دليل على الأئمة السبعة، و«لا إله إلا الله» اثنا عشر حرفاً، دليل على الحجج الاثنتي عشرة.

وكذا (بسم الله الرحمن الرحيم) تسعة عشر حرفاً، هي دليل على سبعة الأئمة، والاثنتي عشرة حجة[1].

قالوا: والقرآن الكريم هو تعبير محمد - ﷺ - عن المعارف التي فاضت عليه، ومركب من جهته، وقد سمي «كلام الله» مجازاً!!.

وقالوا بإبطال القول بالمعاد والعقاب، وأنكروا الجنة والنار، وما الجنة إلا نعيم الدنيا، وما العذاب إلا اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة، والصوم، والحج، والجهاد[2].

ثم انتقلوا إلى التكاليف والمصطلحات الشرعية واليقينية، فأعملوا فيها معاول المجاز والتأويل، فغدت رموزاً إلى بواطن لا أكثر.

فالجنابة - مثلاً - هي: مبادرة المستجيب بإفشاء ما ألقي إليه من أسرار.

والغسل: تجديد العهد على فعل ذلك.

والصيام: الإمساك عن كشف الأسرار.

والجهاد: صب اللعنات على الخصوم.

والبعث: الاهتداء إلى مذهبهم الباطن.

---

(١) انظر «بيان مذهب الباطنية وبطلانه» محمد الحسن الديلمي (ص٤١، ٤٣).

(٢) انظر «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة» (ص ٣٩٦ - ٣٩٧). الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ).

= وَالزَّكَاةُ: بَثُّ الْعُلُومِ لأَهْلِ مَذْهَبِهِمْ وَدِينِهِمْ، يَتَزَكَّونَ بِهَا (١).

أَمَّا أَلْفَاظُ الْقُرْآنِ فَجَمِيعُهَا مَجَازَاتٌ، تَخْضَعُ لِتَأْوُلاتِ عُقُولِهِمْ، وَتَوَجُّهَاتِ أَهْوَائِهِمْ.

قَالُوا: «اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَا وَرَدَ فِي كِتَابِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -: مِنْ ذِكْرِ الْجَنَّاتِ، وَالأَنْهَارِ، وَالنَّخِيلِ، وَالأَعْنَابِ، وَجَمِيعِ الشَّهَوَاتِ - هُوَ دَالٌّ عَلَىٰ الأَئِمَّةِ - عَلَيْهِمُ السَّلامُ -، ثُمَّ عَلَىٰ الْحُجَجِ، ثُمَّ عَلَىٰ اللَّوَاحِقِ، ثُمَّ عَلَىٰ الدُّعَاةِ، ثُمَّ عَلَىٰ الْمُسْتَجِيبِينَ الْبُلَّغِ، ثُمَّ عَلَىٰ الأَدْنَىٰ فَالأَدْنَىٰ. وَمَا وَرَدَ فِي كِتَابِ اللهِ: مِنَ الْجِبْتِ، وَالطَّاغُوتِ، وَإِبْلِيسَ، وَهَارُوتَ، وَمَارُوتَ، وَيَغُوثَ، وَيَعُوقَ، وَنَسْرٍ، وَوَدٍّ، وَسُوَاعٍ - فَمِثْلُهُمْ وَشَكْلُهُمْ عَلَىٰ أَهْلِ الظَّاهِرِ - أَيْ: أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ -، وَرُؤَسَائِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ بَعْدَ أَئِمَّتِهِمُ الْجَائِرِينَ الْمُعَانِدِينَ لأَهْلِ الْحَقِّ، الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ الْبَاطِنِ».

وَقَالُوا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرَّحْمَنُ: ٥]، الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ: الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ.

وَفِي قَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأَعْرَافُ: ٥٣]، أَيْ: ظُهُورُ الإِمَامُ الْغَائِبِ. وَفِي قَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [الْمَائِدَةُ: ٣].

﴿الْمَيْتَةُ﴾ هِيَ: الاعْتِمَادُ عَلَىٰ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ دُونَ الالْتِفَاتِ إِلَىٰ بَاطِنِهِ.

أَمَّا ﴿الْمُنْخَنِقَةُ﴾: فَالَّذِي نَقَضَ الْعَهْدَ هُوَ الْمُنْخَنِقُ تَحْتَ السِّكِّينِ.

وَ﴿الْمَوْقُوذَةُ﴾: مَا ضُرِبَ بِعَصَا الدَّاعِي. وَ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾: مَا اسْتَزَلَّهُ مُنَافِقٌ، أَوْ وَقَعَ عَلَيْهِ عَذَابٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَكَشَفَ أَمْرَ اللهِ.

وَفِي قَوْلِهِ - ﷺ -: «إِذَا أَتَيْتُمُ الْغَائِطَ، فَلا تَسْتَقْبِلُوا الْقِبْلَةَ، وَلا تَسْتَدْبِرُوهَا، وَلَكِنْ شَرِّقُوا وَغَرِّبُوا» [رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٣٩٤)، وَمُسْلِمٌ (٢٦٤)]. فَقَالُوا: الْقِبْلَةُ مَجَازٌ!، لا كَمَا تُفْهَمَ عَلَىٰ ظَاهِرِ لَفْظِهَا، إِنَّهَا رَمْزٌ لِلإِمَامِ، وَمَعْنَىٰ الْحَدِيثُ: أَيْ لا تُظْهِرُوا وِلايَةَ الإِمَامِ، وَلا تُظْهِرُوا الْبَرَاءَةَ مِنْهُ.

وَقَدْ سَلَكَتْ غُلاةُ الصُّوفِيَّةِ الْمَسْلَكَ نَفْسَهُ، فَأَوْغَلُوا فِي النَّظْرَةِ الْمَجَازِيَّةِ إِلَىٰ عِبَارَاتِ الْكِتَابِ الْكَرِيمِ، وَمَضَوْا يَتَعَسَّفُونَ فِي تَأْوِيلِهَا حَسَبَ أَهْوَائِهِمْ، وَبِمَا يَتَّفِقُ وَشَطَحَاتِهِمُ الْمَعْهُودَةَ؛ فَفِي قَوْلِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طَهَ: ٥]. قَالَ ابْنُ عَرَبِيٍّ: «هِيَ الْحَقِيقَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ الْمَوْصُوفَةُ بِالاسْتِوَاءِ عَلَىٰ الْعَرْشِ الرَّحْمَانِيِّ الإِلَهِيِّ»(٢).

وَفِي قَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرَّعْدُ: ١٧]. قَالُوا: «أَنْزَلَ مِنَ =

---

(١) انْظُرْ «الشِّيعَةُ، الْمَهْدِيّ، الدُّرُوز: تَارِيخٌ وَوَثَائِقُ» لِعَبْدِ الْمُنْعِمِ النَّمِرِ (ص١٢٢ - ١٢٣)، و«الْمَوْسُوعَةُ الْمُيَسَّرَةُ فِي الأَدْيَانِ وَالْمَذَاهِبِ الْمُعَاصِرَةِ» (ص٣٩٦ - ٣٩٧)، وَ«بَيَانُ مَذْهَبِ الْبَاطِنِيَّةِ» (ص٩٦).

(٢) «الْفُتُوحَاتُ الْمَكِّيَّةِ» لابن عَرَبِيٍّ (١/ ١٥٢).

وَاعْلَمْ - أَخِي - أَنَّ عُلَمَاءَ الْبَيَانِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ كَثِيرٌ: كَالْخَطَّابِيِّ، وَابْنِ الأَثِيرِ، وَعَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجُرْجَانِيِّ، وَابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ الْقَيِّمِ، وَأَبِي إِسْحَاقَ الإِسْفِرَائِينِيِّ، وَحَسْبُكَ بِابْنِ قُتَيْبَةَ خَطِيبِ أَهْلِ السُّنَّةِ[1]؛ فَإِنَّهُ يَفُوقُ الْجَاحِظَ مِنْ

= السَّمَاءِ أَنْوَاعَ الْمَكْرُمَاتِ، فَأَخَذَ كُلُّ قَلْبٍ بِحَظِّهِ وَنَصِيبِهِ، فَسَالَتْ أَوْدِيَةُ قُلُوبِ الْعُلَمَاءِ، وَأَوْدِيَةُ قُلُوبِ الصُّوفِيَّةِ»[1].

وَغِنِيٌّ عَنِ الْقَوْلِ أَنَّ كُلَّ هَذِهِ الانْحِرَافَاتِ وَالتَّجَاوُزَاتِ مَا كَانَتْ لِتَكُونَ، لَوْلا انْفِتَاحُ مَجَالِ الْقَوْلِ بِالْمَجَازِ، وَالتَّأْوِيلِ، وَالتَّحَاكُمِ إِلَى الْهَوَى مُشْرَعَةً أَبْوَابُهُ عَلَى مِصْرَاعَيْهَا أَمَامَ أَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ السَّاقِطَةِ... فَوَلَجُوهَا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَصَوْبٍ، تَمْلَكُهُمْ فَرْحَةُ الاقْتِدَارِ بِذَلِكَ عَلَى لَيِّ أَعْنَاقِ النُّصُوصِ، وَتَحْوِيلِهَا عَنْ مُرَادَاتِهَا الْفِعْلِيَّةِ، وَتَغْمُرُهُمْ نَشْوَةُ الْوُصُولِ إِلَى التَّفَلُّتِ مِنْ طَوْقِ الأَحْكَامِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَهُوَ الْهَدَفُ الَّذِي مَا بَرِحُوا يَسْعَوْنَ إِلَيْهِ بِمُخْتَلَفِ الْوَسَائِلِ، وَشَتَّى طُرُقِ الأَسَالِيبِ.

نَقْصُ دَرَجَةِ الْمَجَازِ:

وَأَخِيرًا: فَإِنَّ الْقَوْلَ بِالْمَجَازِ يُوهِمُ دَرَجَتَهُ عَنْ دَرَجَةِ الْحَقِيقَةِ، لاسِيَّمَا وَإِنَّ مِنْ عَلامَاتِ الْمَجَازِ صِحَّةَ نَفْيِهِ، وَهَذَا يُؤَدِّي إِلَى تَوْلِيدِ شُعُورٍ جَادٍّ، وَإِحْسَاسٍ صَادِقٍ وَحَقِيقِيٍّ لَدَى الْمُتَلَقِّي بِأَنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ - وَالَّتِي قِيلَ بِمَجَازِيَّتِهَا - هِيَ أَقَلُّ دِلالَةً، وَأَضْعَفُ أَدَاءً مِنَ الْعِبَارَةِ الأُخْرَى، الْمَحْمُولَةُ كُلُّ أَلْفَاظِهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ. وَإِذَا اطُّرِدَ مِثْلُ هَذَا الاعْتِبَارِ عَلَى كَلامِ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، وَكَلامِ نَبِيِّهِ - ﷺ -، وَقَعْنَا فِي شَرَكِ امْتِهَانِ الْوَحْيِ، وَالْحَطِّ مِنْ قَدْرِهِ، وَالْمَسَاسِ بِعَظَمَتِهِ وَقُدْسِيَّةِ شَأْنِهِ، وَهُوَ أَمْرٌ لا يَرْضَاهُ مُسْلِمٌ، يَحْرِصُ عَلَى بَرَاءَةِ ذِمَّتِهِ، وَيُظْهِرُ أَدْنَى دَرَجَاتِ الأَدَبِ وَالسُّلُوكِ الإِسْلامِيَّيْنِ حِيَالَ كِتَابِ رَبِّهِ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ - ﷺ - وَهَكَذَا، فَإِنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْلِ بِالْمَجَازِ سِوَى مَفْسَدَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ جُمْلَةِ هَذِهِ الْمَفَاسِدِ الَّتِي ذَكَرْنَا - لَكَفَانَا ذَلِكَ عُذْرًا لِرَفْضِهِ وَإِنْكَارِهِ، وَرَفْعِ لِوَاءِ مُحَارَبَتِهِ، خَاصَّةً وَإِنَّ قَاعِدَةَ: «دَرْءُ الْمَفَاسِدِ مُقَدَّمٌ عَلَى جَلْبِ الْمَصَالِحِ» قَاعِدَةٌ مُعْتَبَرَةٌ فِي شَرْعِنَا، فَكَيْفَ وَلَيْسَ فِي الْمَجَازِ مَنْفَعَةٌ وَاحِدَةٌ مُرَجَّحَةٌ لِلْقَوْلِ بِهِ!.

---

(١) قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ فِي «الْفَتَاوَى» (١٧ / ٣٩١): «كَانَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ يُعَظِّمُونَهُ، وَيَقُولُونَ: مَنِ اسْتَجَازَ الْوَقِيعَةَ فِي ابْنِ قُتَيْبَةَ يُتَّهَمُ بِالزَّنْدَقَةِ، وَيَقُولُونَ: كُلُّ بَيْتٍ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ تَصْنِيفِهِ فَلا خَيْرَ فِيهِ».

وَقَالَ فِي (ص٣٩٢): «هُوَ لأَهْلِ السُّنَّةِ مِثْلَ الْجَاحِظِ لِلْمُعْتَزِلَةِ، فَإِنَّهُ خَطِيبُ السُّنَّةِ، كَمَا أَنَّ الْجَاحِظَ خَطِيبُ الْمُعْتَزِلَةِ».

---

(١) «عَوَارِفُ الْمَعَارِفِ عَلَى هَامِشِ إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ» لِعُمَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ السَّهْرُودِيِّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٦٣٢هـ (١ / ٢٠٠).

حَيْثُ النَّسَقَ، وَحُسْنُ التَّبْوِيبِ، مَعَ سِعَةِ الْعِلْمِ، حَتَّىٰ قِيلَ عَنْهُ: «دَائِرَةُ مَعَارِفَ».

وَلَا شَكَّ أَنَّ هُنَاكَ نَوْعًا مِنَ الْجَوَاهِرِ لَا تُوجَدُ إِلَّا عِنْدَ غَيْرِهِمْ، فَمَتَىٰ أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ فِي أَثَرِهَا فَمَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ جُنَاحٍ، لَكِنْ مَتَىٰ أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ غَيْرَ الْمُعَلَّمِ فَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

obeikandl.com